شعر الإيمانيات والوجدانيات في ديوان هوامش الذات للدكتور محمد بن سعد بن حسين

لمع في سماء ثقافتنا العربية عدد من أكفَّاء البصر؛ فكانوا قادة فكر، وأعلام فقه وعقيدة، وأئمة هدى وإصلاح، وعرفنا أولئك العلماء في عصور الإسلام الأولى وما تلاها من عصور.

وفي العصر الحديث عرفنا أعلاماً تعتز بهم أمتنا لتميزهم.. وكان أولئك الأعلام من أكفاء البصر أساتذة أفاد منهم أبناء جيلنا من مبصرين وفاقدي البصر، وفاق أولئك الأساتذة عدداً من المبصرين عمقاً وحفظاً وتأصيلاً وموهبة. وكان ممن تميّز بذلك شيخنا وأستاذنا محمد بن سعد بن حسين رحمه الله وغفر له. وفي هذه السطور المتواضعة ألقي نظرات على بعض شعره، وما تضمنه من معانٍ إيمانية وتربوية تدل على امتلاكه موهبة شعرية وحساً إيمانياً قويين.

عبدالعزيز بن صالح العسكر - السعودية

كان عنوان ديوان شيخنا الذي وقفت عليه هوامش الذات، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م في ٩١٢ صفحة.

قصائد الديوان كثيرة، تنوعت عناوينها، فجعلها فصولا للديوان منها: إيمانيات ووجدانيات، وسأقتصر هنا على نظرات في هذا الفصل من الجزء الأول للديوان؛ لكثرة ما فيه من قصائد ومقطوعات جميلة.

◁◁ وصف الجنة ونعيمها:

ففي وصف الجنة ونعيمها أورد شيخنا أبياتا من قصيدته (عبرة) وهو وصف يغري المؤمنين بالجد لطلبها وبعبارات لا ينقصها الوضوح، يقول[1]:

دار بها للأكرمين منازل
يعيي تصورها ذوي الألباب
سهرت لها عين التقي فنالها
كرماً من المولى وحسن ثواب
حور الجنان لمن أراد تنعماً
ومهورهن عبادة التواب
صيغت لها رفارفٌ خُضُرٌ بها
من عبقري الحسن ذي الإعجاب

ويقول شاعرنا مخاطباً كل طالب للجنان:

وارصد سويعات الإجابة واغتنم
نفحات ربك في ذرا المحراب

◁◁ الشوق إلى الأراضي المقدسة:

وفي قصيدة بعنوان (تلهف) يعبر شاعرنا عن شوقه وحبه للحجاز بلد المقدسات وقبلة المسلمين ومنبع الرسالة ومولد الهدى.. وحديثه عنها رائع صادق، حديث قلب ونبض فؤاد؛ ومما ورد في ذلك قوله[2]:

ديار هواها من قديم وحادث
حديث فؤاد لم يزل مرهقا صبّا
وجسم براه الشوق والخوف والرجا
وروح يخاف الصد والبعد والكربا
أحنّ حنين الهيم إن زرت دارها
وفي البعد نيرانٌ تشب لها شبا
فمن لي بها من بعد ما شطت النوى
وجارت فلم تترك نديّاً ولا صحبا

ويلح شاعرنا على الله أن يبلغه تلك المرابع المقدسة لتقر نفسه بلذّة العيش فيها وثواب الأعمال الصالحة على أرضها، فيقول:

فيا ربّ لا تحرم محباً حبيبه
وهيئ لنا الأسباب والموئل الرحبا
نجدُّ بآمال عراض تقودنا
إذا ما ونت أقدامنا نركب السحبا
هوانا إلى أرض الحجاز مجددٌ
وللبيت منّا حُب من يعرف الحبا

◁◁ مع شهر رمضان المبارك:

وإذا كان رمضان ربيع العابدين ورياض الصالحين وميدان سباق الأوابين فإنّ شاعرنا يُحَيّي رمضان بقصيدة يعبر فيها عن شوقه وحبه وشجونه تجاه شهر الصوم يسوقها بصدقه المعهود وبيانه المألوف، فيقول[3]:

يا روضة كل عام نستجم بها
ونستعيد صفاء فيك منفتحا
ونرتجي العتق من نار السعير، فمن
ينجو من النار مرحوماً فقد نجحا
أنت الذي ينفض الأتراح عن كبد
الهم يطعنها طعن الذي ذبحا
فيك العزاء، ومنك الأنس مكتسب
ليلاتك البيض تبقي الصدر منشرحا
فامنح كما أنت في الماضي فإن بنا
شوقاً يجدد فينا كل ما صلحا

احتفاؤه بحفظة كتاب الله الكريم:

وحينما حضر - رحمه الله - حفل تكريم حفظة كتاب الله تعالى في بلدته حوطة سدير نظم قصيدة رائعة منها قوله[٤]:

يا شيخ حفاظ ذكر الله فرحتهم
بأنك اليوم فيهم رائد النادي
هم من شباب لهم في الذكر مفخرة
إذا أتى الناس في مثنى وآحاد
يقال للقارئين الحافظين له
هيا اقرؤوا واصعدوا من غير إجهاد
هم أخلصوا للذي أولوه همتهم
كتاب ربك تحفيظاً لأولاد
يرجو الصلاح لنشءٍ صاعد أبداً
للمجد في موطنٍ مهدٍ لأمجاد

مع النبي ﷺ:

ومن غرر قصائد الديوان قصيدة رائعة لشيخنا عنوانها (نبي الهدى) جاءت في اثنين وخمسين بيتاً من البحر الطويل ومطلعها[٥]:

صبا بعد ما في الخير شابت مفارقه
وغنى لها والشيب عنهن عائقه

وجاءت القصيدة تاريخاً لسيرة نبينا محمد ﷺ

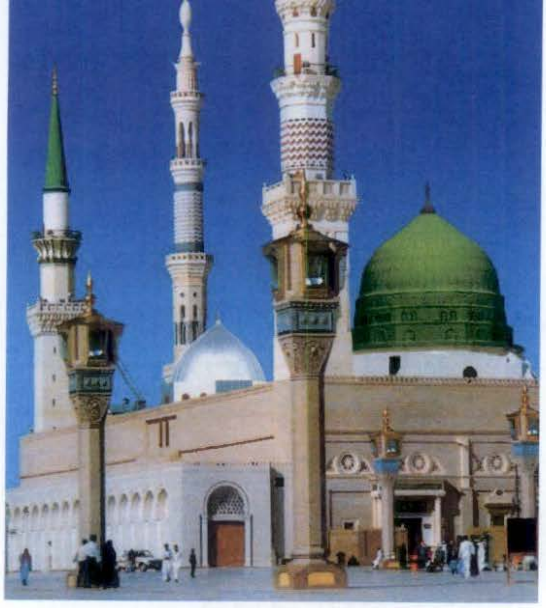

منذ البعثة، وما واجهه من صعوبات وأذى إلى أن أعزّ الله دينه ونصر رسوله، وكانت هجرته للمدينة فتحاً وبداية لنشر الإسلام وعلو راياته. ففي وصف شخص نبينا محمد ﷺ يقول الشاعر:

أفاض عليه الله سابغ نوره
وأولاه ما لم يول من هو سابقه
وطهره من كل رجس فلم يجئ
مريباً ولم يسجد لما ذم خالقه
ولم ينطق العورا، ولم يأت فاحشاً
فكل معيب لم تزره طرائقه

وفي بيان ما واجهه من أهله وقومه في مكة من صدود وأذى وتحريض يقول شاعرنا:

فعادوك جهلاً منهمو وغواية
تناءت بهم عما تضيء بوارقه
وقد جمعوا كل المكائد وانتهوا
إلى حيث لا رحم تصان علائقه
حصار وإيذاء ومكر وخدعة
فلم يبق إلا القتل تشفى صوافقه
فخابوا، ومر المصطفى بين جمعهم
يذر على الهامات تربا عوالقه

وفي الهجرة صور أخرى رائعة:

وفي الغار والصديق يرقب ثلة
من القوم مستهدي طريقا مفارقه

أضلتهمو- قال الحفي- وقلبه
على وجل- لو يخفض الرأس حاذقه
لأبصرنا، قال النبي مطمئناً:
رعاية عين الله تعمي حوادقه

وفي تصوير دقيق وجميل للرحلة النبوية يقول ابن حسين:

وسارت ركاب الخير في درب يثرب
وللمعجزات البلق حشد يرافقه
ودَرَّت لهم في خيمتي أم معبد
شويهتها ضرعاً يبوساً مفاوقه
وَسَابِقَةٌ يعلو سراقةُ سَرْجَها
قوائمها ساخت، فخانته سابقه

الشاعر والحب:

وفي طرح متميّز ونقد أصيل يطرق شاعرنا موضوعاً من موضوعات الشعر عند كافة الشعراء عرف به بعضهم، وأفردت له الدواوين، وغاص في أعماقه كثير من الناظمين، وهو موضوع: الحب والغزل.. وهو غرض تعددت فيه المشارب، وتفاوتت في تصويره وتصوير آثاره المذاهب. ولكن ابن حسين يراه من جانب ربما غفل عنه كثير من عشاق الكلمة المنظومة والمشاعر الموزونة؛ فما الحب في نظر ابن حسين!؟

إنه معانٍ راقية، وحقائق غالية لوثها الأدعياء، وروّج لها الأشقياء، وهام بعيداً عنها أسرى الشهوات وضحايا الظلمات. يقول شيخنا[٦]:

سئمت حديث الحب فهو خرافة
إذا لم يكن حُبّاً كريماً مطهراً
تخادعنا الغيداء بالحب لحظة
وبالصد أخرى أو يجيء مكررا
حديث يمني بالوصال خرافة
وتزعم أن الجفن منها مسهرا
وما سهرت عين تخادع مدنفاً
ولكنه طبع لهن مقررا

ومدعو الحب، وأسرى العشق من الجنسين يمني بعضهم بعضاً أو يعده بالوصل؛ ولكن هيهات.. أما الوصل الحقيقي المبني على حب صادق في نظر ابن حسين فشيء آخر:

ولا خير في وصل على غير سنة
يجيء بآثام فيمسي مكدرا
قضى الله أن الوصل وصلان: صالح،
ووصل خبيث جاء في الفعل منكرا

الشاعر والعيد:

وإذا كان أمير شعراء زمانه أبو الطيب المتنبي قد نظر إلى العيد في قصيدته المشهورة:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

..نظرة حزن ويأس وألم؛ لأنه عاشه في زمان ومكان تكاثرت فيه مصائبه وآلامه، وتوالت صور ظلم البشر واحتقارهم له، فإن شيخنا ابن حسين قد نظر إلى العيد نظرة أخرى، نظرة شيخ كبرت سنه، ومات أصدقاؤه، وذهب أقرانه، ورأى كيف تغيرت حال الناس وعاداتهم حتى صار العيد عندهم تقليداً باهتا، وأشكالاً تخالف صورها حقائقها، فلا الحب هو الحب، ولا الوصل هو الوصل، وإنما صار الناس - إلا من رحم الله- يحرصون على المظهر أكثر من المخبر.. ويتصنعون ابتسامات تخفي وراءها بغضا واحتقارا.

يقول شاعرنا في قصيدة بعنوان (يا عيد)[٧]:

يا عيدُ كم من هتاف ضج في خَلَدي
ومن أنادي أصمٌ عن مناديه
يا عيدُ ما لي وماض كله شجن
أودى بصحبي وبالأشباح عاديه
أراجع الذكريات البيض وهي لظى
يشوي فؤادي وقد أقْوَت نواديه
كم حلقت نورها شيخ فواضله
تنفي الجهالات، علم منه يبديه

ويخاطب شاعرنا العيد بخطاب الصراحة والألم:

يا عيدُ لم يبق لي شيخ أنادمه
ولا صديق صدوق كي أناديه
والروض ما عاد لي من رنده أنس
ماتت زهيراته وانبحَّ شاديه

ويُعدد ما فقد في العيد فيقول:

ونامت الضحكة الكبرى على سأم
وانفضّ سامر من جدت عواديه
فلا الزمان زمان الصالحين ولا
هذا المكان بناديه ووادية
قد كنت يا عيد مزداناً بفرحتنا
واليوم ما عدت تهديني وتهديه
جفت ينابيع أنس كان يجمعنا
على الصلاح وما قد كان يسديه

ولم يغفل شيخنا أنّ دوام الحال من المحال، والتغير يسري على الأفراد والأمم:

عهد على البر يطوينا وينشرنا
طي السجل، ونشراً لا نباديه
يطوي الزمان بنا أفراحنا أمماً
حتى إذا أطمعت جدت صواديه
لا نرتوي قط إلا من مدامعنا
أو نشتكي غير ما يؤذي أعاديه
ياعيدكم عربدت في الصدر من فرق
آمال مغترب والحي ناديه
وكيف أسلو حياة كنت أنشدها
وصاحباً تاه مني في مراديه

وكيف أنسى شيوخاً كان علمهمُ
نور الفؤاد ومهوى ما يباديه

في هذه الإشارات السريعة نجد: نفساً طويلاً، وثقافة واسعة، وتنوعا في الموضوعات، وصدقاً في العاطفة.. على أن ذلك جاء في قالب شعري أشبه بنظم العلماء في فنون العلم الشرعية واللغوية؛ فالخيال فيه قليل، والصور الشعرية نادرة، ولغة شاعرنا قوية أسلوباً ولفظاً؛ فأنت تجد في شعره ألفاظاً تحتاج للقاموس في معرفة معانيها؛ وأسلوبه في الربط بين الألفاظ، وبينها وبين المعاني قوي كذلك ومتميز.

لقد جاءت قصائد شيخنا وشاعرنا تأريخاً صادقاً لحياة كريمة عاشها رحمه الله بين الشدة والرخاء، والعسر واليسر، والضيق والسعة، فسجل أحداثها، وصوَّر معاناته فيها، وثقته في الله تعالى التي مكنته من الوصول إلى أعلى الدرجات العلمية في الأدب العربي، وعشرات المؤلفات المطبوعة والمخطوطة فيه■

الهوامش:

(١) ديوان هوامش الذات، ج١، ص١٦، ط١، دار عبد العزيز الحسين للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٠-٣١.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٧٠-٧٣.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٩.
(٧) المصدر نفسه، ص٨٩-٩٠.